العبادة من البدء إلى القرن السادس عشر

نظرة عامّة

القس / كرم لمعي

في إحدى المرّات، دعوتُ "مرنمًا" ليقود التسبيح في اجتماع الأحد، وأخبرته مُسبقًا بترتيب العبادة وموضوع القراءات الكتابية والصلوات، فقال لي إنّه يفضّل أن تكون فترة التسبيح متّصلة دون "مقاطعة". ومرةً أخرى دعوت شخصًا آخر وأخبرته بموضوع العظة واقترحتُ عليه في أي اتجاه يمكن أن تسير الترانيم، فأخبرني أنه سيعدُّ الترانيم حسبما يرشده الروح! واعترض ثالثٌ على طلبي بحذف ترنيمة لأنها ليست صحيحة لاهوتيًّا. اعتدتُ أيضًا أن أرسل النّص الكتابي للعظة إلى الشعب قبل يوم الأحد ليقرأوه ويصلّوا ويستعدوا، فأرادني البعض ألا أفعل هذا لأنهم يفضلون أن يتفاجأ الناس بالعظة دون أن يكون لديهم تخمينات مسبقة.

كل هذه الأمثلة وغيرها يكشف لنا مقدار العوار الكبير في فهم الناس لماهية العبادة وكيفية ممارستها بما يعكس كلمة الله بالحقيقة وبالطريقة التي تكرّس للفكر المصلح والتقليد الآبائي الذي لا يتعارض مع الكلمة. والحق أنّ غالبية كنائسنا وشعبنا والكثير من القسوس والمجالس لا تعير هذا الأمر أي اهتمامٍ، واستسلمت الغالبية للتيارات الطاغية على الساحة الكنسية، ويمكن القول: حيث لا ليتورجيا كنسية صحيحة عبد كل واحد كما يحسن في عينيه.

في هذه المقالة سأتتبّع، بإيجاز، تاريخ العبادة منذ بدء الخليقة وحتى عام 1516، عام الإصلاح، وأتمنى أن يكون هذا الجهد البسيط نواةً لمزيد من الدراسات والمناقشات التي تخلق تحركًا جادًّا ومسؤولًا نحو إصلاح العبادة بما يمجّد الله فعلًا. والدافع لهذا هو أنّ الله، المستحق للمجد قد سبق وأعلن في الكلمة كيف يجب أن يُعبد بدءًا من جنّة عدن. فهيّا بنا.

أولًا: العبادة في العهد القديم

1. ما قبل الآباء

من الإصحاحات الأولى في سفر التكوين نتبين أن العبادةَ في جنّة عدن تركزت في طاعة الإنسان لوصية الله، وبنوع من الشركة والحديث، وقد خلق الله الإنسان على صورته لتكون له القدرة على التواصل مع الله وعبادته، وبكسر الوصيّة فقد أعلن الإنسان أنه لا يريد أن يعبد الله، فَحُرم الإنسان من الشركة والعلاقة مع الله. ثم نلتقي مع قايين وهابيل وتقديم القرابين لله، فنجد أنّ الإيمان كان ضروريًّا ليقبل الله القربان (عب 11: 4) وكان لا بد أن يقترن الإيمان والقربان بالسلوك الصالح في نفس الوقت (1يو 3: 12). ومع الوقت تزايد شر الإنسان، ورفض الخضوع لله، إلا أن نوح تعّبد للرب وسلك في وصاياه... وصولًا إلى برج بابل، الذي كشف إصرار الإنسان على التمرد ونبذ التعبّد لله وانتهى الأمر بتبديد الإنسان على وجه الأرض.

2. عصر الآباء

دعا الله إبراهيم ووعده بالبركة، فتجاوب إبراهيم مع الدعوة وعَبَد الله (تك 13: 18)، ثم ظهر ملكي صادق ليقود العبادة بتقديم الخبز والخمر، وقام إبراهيم بإعطائه العشور يمكن اعتبار الخبز والخمر والعشور والبركة عناصر العبادة، وسار إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نفس الدَّرب (تك 26: 25، 33: 20).

3. موسى والخروج وكنعان

بالخروج من مصر تأسّس الفصح اليهودي ليتذكّر الشعب به خلاص الله، وفي سيناء أعطى الله لوحي الشريعة مع كل التفاصيل الخاصة بإقامة خيمة الاجتماع ونظام الذبائح والكهنوت، الأمر الذي يبيّن الأهمية القُصوى للعبادة في فكر الله، حيث أعطى تعليمات وتفاصيل دقيقة ومحدَّدة لكيفية الاقتراب إليه، لاحظ تكرار كلمة "كما أمر الرب موسى" في (سفر العدد الإصحاحات 16- 33). فنرى الله بنفسه يحدِّد نوعيَّة وكيفيّة العبادة التي يجب أن يقدّمها إسرائيل له. لكن سرعان ما قاد هارون الشعب إلى عبادة عجل ذهبي (خر 32: 1- 6) وكان هذا مناقضًا للوصايا واختزالًا لله في القوّة وتشبيهًا له بآلهة مصر. وفى أرض كنعان عبد الشعب آلهة الأمم وعلى رأسها البعل.

4. من داود إلى السبي

أحيا داود العبادة بإرجاع تابوت العهد إلى أورشليم التي جعلها العاصمة الدينية (2صم الإصحاحان 6، 7)، كما أعدَّ المواد اللازمة لبناء الهيكل، ثم أدخل الآلات الموسيقية إلى العبادة، ونظم فِرَق اللاويين للترنيم، وكتب المزامير، ثم جاء سليمان وبنى الهيكل وانتظمت العبادة فيه (1مل 5- 9)، ولكن انحرف سليمان وراء آلهة الوثن فانقسمت المملكة عقابًا له، ثم حدث السبي ودمار الهيكل وأورشليم (2مل 25: 9)، ولم يعد الهيكل مركز العبادة؛ ففي السبي التفَّ الشعب حول الشريعة وصار المجمع هو "الإكليسيا"، ومركز التربية الدينية والاجتماعية. وتركّزت العبادة في المجمع في قراءة الكلمة وشرحها (Webber, 27). ولعب المجمع دورًا مهمًّا في تثبيت الإيمان وحفظ الصلاة والكلمة المقدَّسة، ويقسم دينس (Deddens, 16-17) العبادة في المجمع إلى:

1. الشِّماع (تث 6: 4)
2. الصّلاة، وتختم من الشعب بالقول: "آمين"
3. البركة الهارونية (عدد 6: 24- 27)
4. قراءة وشرح الكلمة (الشريعة والأنبياء) (لوقا 4: 16- 27، أع 13: 14- 41).

وصار للمجمع اليهودي أكبر أثر فيما بعد على العبادة المسيحيّة. وبعد السبي، أعيد بناء الهيكل وأورشليم، وأصبحت الشريعة قانون الحياة، وارتبطت هوّية الشعب بالأرض، إلى أن غزا الإسكندر الأكبر فارس وانتشرت الهلنستية وأثَّرت في الفكر اليهودي والعبادة، خاصةً في المجامع، وانقسم اليهود إلى: محافظين رفضوا الهلنستية، مثل الفريسيين، ومتحرّرين قبلوا التأثير الهلنستي بمرونة، مثل الصدّوقيين.

5. خلاصة العبادة في العهد القديم

1. تمثلت عناصر العبادة في إعطاء الشريعة في جبل سيناء، الهيكل والمجمع والأعياد اليهودية وأهمها الفصح والخمسين.

2. مبادئ العبادة هي أن الله وحده هو المعبود، ولا بد من عبادته وفق النموذج الإلهي الذي أقرّه هو.
3. رغم أنّ الله مرتفعٌ فوق الكلّ إلا انّه أراد أن يسكن وسط شعبه (الخيمة ثم الهيكل).
4. لا يمكن الاقتراب المباشر إلى الله إلا عن طريق الوساطة (الكهنوت) والذبائح.
5. طاعة الشريعة عمليًّا لا تنفصل عن التعبد لله.

ثانيًا: في العهد الجديد

1. موقف يسوع

صادَقَ يسوع على العبادة اليهودية (لو 2: 21- 51، يو 7: 14- 49، 10: 22- 23)، لكنه بيَّن أن دور العهد القديم كان في التمهيد لمجيئه، غير أنه لا يوجد ما يشير إلى أن يسوع قدَّم ذبائح في الهيكل، أو وافق على نظام الذبائح (Webber, 43). ووَصَف يسوعُ نفسَه بأنه أعظم من الهيكل (مت 12: 6) ومركز الكتب المقدسة (لو 4: 16- 30) وهاجم يسوعُ زيفَ ورياء العبادة والتناقض بين الممارسات والسلوك اليومي.

والعبادة الحقيقية، كما أقرَّها يسوع، تكون للرب وحده، بالروح والحق مع حياة السلوك القويم (مت 4: 4، 7، 10، يو 4: 17- 24). وعندما انشقَّ حجابُ الهيكل عند موت يسوع دلَّ على انتهاء الأنظمة القديمة (عب 9: 6، 24؛ 8: 2) ويوجز Reed ريد (Reed, 58) النتائج المترتبة على موت يسوع في التالي:

1. انتهاء دور الهيكل كمركز للعبادة.
2. انتهاء الكهنوت اللاوي كوسيط للاقتراب إلى الله.
3. انتهاء دور الذبائح الحيوانيّة كطريق الاقتراب إلى الله.

ويستبدل (Webber, 35) عهد سيناء Sinai- event كمصدر للعبادة بـعهد المسيح – Christ event ويطلق عليه الخروج الثاني، الذي هو دخول المسيح إلى العالم لفداء شعبه.

2. العصر الرسولي

بقراءة سفر الأعمال نجد أن الرّسل والكنيسة الأولى واظبوا على العبادة في الهيكل دون الشعائر أو الطقوس اليهودية، وظهر تمييزٌ واضح بين العبادتين اليهودية والمسيحية؛ فنجد في أع 2: 42 مواظبة التلاميذ على تعليم الرسل، والشركة، وكسر الخبز، والصلوات. أما عن تأثير الهلنستية فيقول ويبر: "تميزت العبادةُ المسيحية الهلنستية بالتخلي عن الطقسية اليهودية، ونظر المسيحيون إلى الشعائر اليهودية على أنها تحققت وأُعِيد تفسيرُها في يسوع" (Webber, 35).

تم استبدال الفصح اليهودي بالعشاء الرباني (الشركة) وأضيف إلى عناصر العبادة المجمعية؛ كالشكر وتعليم الرسل والمعمودية باسم يسوع. وأضيفت كلمات خاصّة مثل؛ "أبّا"، "ماران آثا"، "آمين" بالإضافة إلى "التحيّة" و"البركة الرسوليّة" (Deddens 16, 17). ويُجمل ريد مبادئ العبادة في القرن الأول كالآتي:

1. الله وحده موضوع العبادة.

2. على الإنسان أن يعبد الله وفق الوسائل التي يعطيها الله في كلمته.
3. ليس مسموحًا بتعديل أو تبديل العبادة كما هي معلنة في كلمة الله (Reed, 58).

ثالثًا: القرون المسيحية الأولى

(1) القرنان الثاني والثالث

مصادر معرفتنا في هذه الفترة رسالة بليني Pliny للإمبراطور تراجان، وتعليم الرّسل، وكتاب الدفاع ليوستين الشّهيد، والتقليد الرسولي لهيبوليتوس الروماني، والدسقولية، وكتاب إكليمندس الإسكندري وأوريجانوس. ومن هذه المصادر نجد أنّ العبادة في القرن الثاني تشكلت من عنصرين هما: الكلمة والعشاء الرباني، بالإضافة إلى استمرار تأثير المجمع اليهودي من حيث كون الكلمة هي المحور. ويذكر يوستين الشهيد أنه بعد العظة كان غير المعتمدين يخرجون وتبدأ ممارسة عشاء الرب بإعداد الخبز والكأس ثم القبلة المقدّسة. وفي القرن الثاني كان هناك لقاءان للعبادة صباح ومساء الأحد، وكانت العبادة الصباحية تحتوي على الكلمة والصلاة والترنيم، والمسائية وليمة مُشتَرَكة يعقبها العشاء الرباني، ثم جمع العطايا للفقراء، ولكن بعد 150م اختفت وليمة الشركة وبدأت ممارسة عشاء الرب صباحًا، كما كانوا يصومون يومي الأربعاء والجمعة. أما في القرن الثالث فكانت العبادة تتكون من ليتورجيتين:

1. ليتورجية الكلمة: قراءات، وترانيم المزامير، والهللويات، وعِظَة أو أكثر ثم ينصرف غير المعتمدين.
2. ليتورجية عشاء الرب: وكانت تبدأ بالقبلة المقدسة، ثم تقديم الخبز والكأس، ثم الشكر والتوزيع، وتختتم بـ"ارفعوا قلوبكم" sorsum corda، وظلت المعمودية حتى القرن الثالث تُمارس إمَّا بالتغطيس، أو السّكب، أو الرّش، وكانت ترمز إلى الارتباط بالمسيح في موته وقيامته، وأيضًا إلى غسل الخطايا والاستنارة بكلمة الله حسبما توصل إليه (Old, 13).

ومن رسالة بليني Pliny، كان عشاء الرب يُمارس اليوم الأول من كل أسبوع (Old, 13)، ومع بداية القرن الثالث بدأ يتطور نظام الأعياد وأيام للصوم، أما الصّلاة فكانت قد أصبحت جزءًا أصيلًا من العبادة وكانت هناك صلاة التشفع وصلاة عامة بعد العظة وقبل عشاء الرب.

(2) القرنان الرابع والخامس

ازداد تأثر العبادة في الشرق بالمؤثّرات الثقافية للحضارة الهلنستية متمثلةً في حبّ الجمال والأدب والفن والفلسفة والشعر، مما أدَّى إلى زيادة الرّموز والعلامات والزخارف في العبادة، فنجد قداس ذهبي الفم حسب وبير ينقسم إلى:

1- الدخول الصغير The little Entrance وكان محوره الكلمة بقراءة الإنجيل، وبدأ يظهر تبجيل الكتاب المقدس بحمله بواسطة شماس يصاحبه عددٌ من الخُدَّام يحملون الصلبان والشموع والبخور.
2- الدخول الكبير The Great Entrance ومحوره موت وقيامة المسيح بالتركيز على الخبز والكأس، ومع القرن الرابع ازداد التركيز على عشاء الرب وممارسته بطريقة درامية من قبل

الأسقف الذي أصبح يمثل المسيح، وبنهاية القرن الرابع ازدادت سلبية الشعب الذي أصبح مجرد متفرج يشاهد خدمة القداس دون المشاركة فيها (Webber, 63-64).

ومع الوقت أصبحت المعمودية هي طريق الدخول للإيمان، وعشاء الرب هو الطريق للحياة الجديدة. وترسخت الأعياد مثل القيامة والميلاد، وكان يسبق الميلاد فترة صوم أشبه بحداد مدته 40 يومًا، وبدأ تكريم الشهداء، ومسح المتعمد بالزيت ووضع اليدين عليه علامة قبول الروح القدس، وبدأ الاعتقاد بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه أثناء صلاة الكاهن ما عرف بـ"التحوّل أو الاستحالة" Transubstantiation ثم اقتصرت ممارسة عشاء الرب على الكاهن وحده، وبدأ الفصل بين الإكليروس والعلمانيين.

رابعًا: العبادة في القرون الوسطى

وصولًا إلى القرون الوسطى أخذت العبادة بُعدين رئيسَيْن:

الأول: العبادة كسرٍّ Mystery: ويُرجع ويبر (Old, 67) هذا البعد إلى التأثير الوثني لمن اعتنقوا المسيحيّة دون اهتمام الكنيسة بتعليمهم بدءًا بعصر قسطنطين، وأصبح القداس "ظهورًا إلهيًّا" Epiphany of God حسب أولد (Old, 86). وتحول إلى ذبيحة تقدَّم لله عن الأحياء والموتى، وعن العبادة كسرٍّ Mystery يقول أولد: "صارت العبادة (القدّاس) تُمارس بلغةٍ غير مفهومة للشعب، واقتصر تناول الكأس على الإكليروس" (Old, 125).

الثاني: العبادة كممارسة تَقَوِيَّةٍ Devotion: وظهر هذا البُعد التَقَويُّ نتيجة ظهور الحركات الرهبانية كردِّ فعل لدنيويَّة الكنيسة، وأصبحت الإفخارستيا تُمارَس السبت والأحد، وصارت الصلوات العملَ الرئيسَ للرُّهبان بالإضافة إلى نشاطهم في خدمة الفقراء. وعن المعمودية والكلمة يضيف أولد: "بدأت المعمودية تفقد أهميتها، وأصبحت ممارسةً آليةً بدلًا من كونها علامة عهد، أما عن تعليم الكلمة فاضمحلَّ تمامًا" (Old, 15).

وبهذا التلخيص للعبادة في القرون الوسطى، نجد أن العبادة قد انحرفت عمَّا عرفته الكنيسة الأولى ومارسته، وعن تعليم المسيح والرّسل؛ ففقد عشاءُ الرّب معناه الرمزيَّ كتذكارٍ وشركةٍ وإحياءٍ للرجاء المستقبلي، ولم تَعُد الكلمةُ في مركز العبادة، وأصبح الشعب سلبيًّا ومتفرّجًا لا دور له، فكان لا بدّ من الإصلاح.

خامسًا: عصر الإصلاح

(1) من القرن 12 - 15

بالطبع لم يقتصر الإصلاح على القرن السادس عشر، بل منذ القرن الحادي عشر بدأ الخروج من القرون الوسطى المظلمة، وبدأت إرهاصات الإصلاح إلى أن توهّج في القرن السادس عشر، وفيما يلي بعض النماذج المبكرة للإصلاح حسب كرامنجو:

- في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت هناك عملية إحياء للوعظ قام بها الكاثاريون والوالدينون والدومينيكان والفرنسيسكان.

- في القرن الرابع عشر ظهر John Tauler الذي كان يتبع التَّقويين وأنكر الاعتماد على الطقوس الخارجية وركَّز على الشركة الداخلية للإنسان مع الله.
- ثم John Wycliffe، الذي نادى بأن الكتاب المقدس وحده هو قانون الكنيسة، كما هاجم عقيدة التحول Transubstantiation.
- وفي القرن الخامس عشر نلتقي بجون هس John Huss الذي تبنَّى لاهوت وتعاليم ويكليف، وقد نادى أتباع هس بتحريم كل ما هو دخيل على العبادة من خارج الكتاب المقدس وبدأوا بإعطاء الكأس للعلمانيين.
- كان للنهضة Renaissance التي حدثت في القرن الخامس عشر، وكذلك اكتشاف الطباعة، الأثر الكبير في تمكين الناس من قراءة الكتاب المقدس، ليس الترجمات فحسب، بل وفي لغاته الأصلية كذلك (Kromminga, 154 -166).

(2) <u>القرن السادس عشر</u>

لا يتَّسع المجال لذكر كل تفاصيل الإصلاح في العبادة في القرن السادس عشر، ويحتاج إصلاح الليتورجيا إلى مقالةٍ أخرى لكن يمكن إيجاز فكر المصلحين في العبادة في النقاط التالية:

1. إصلاح اللاهوت كان أساس إصلاح العبادة.
2. رفض المصلحون القداس كتكرار لذبيحة المسيح كما رفضوا عقيدة التحّول.
3. استعادة الكتاب المقدس كمركز للعبادة.
4. المسيح رسم فريضتين فقط هما المعمودية والعشاء الرباني.
5. يمكن للشعب أن يتعبد لله مباشرةً دون وساطة الكاهن.
6. التركيز على الوعظ من الإنجيل وشرحه بصوتٍ مسموع وبوضوح.
7. كان هدف المصلحين العودة بالعبادة إلى طريقتها ومعناها الصحيحين، كما هو معلن في كلمة الله وكما فهمتها الكنيسة الأولى ومارستها.
8. المعمودية هي علامة على غسل الخطايا وانسكاب الروح القدس، ولا بد من ممارستها في العبادة في يوم الرب.
9. نادى المصلحون بوجوب عدم تحويل العبادة إلى مجرد تقليد، بل ممارستها بكل خضوع لكلمة الله.

ويوجز ديدن العبادة في الفكر المُصلح في:

1. كلمة الله، وتصل إلى الناس عن طريق القراءة، والوعظ، والمعمودية، وعشاء الرب، والبركة.
2. اقتراب الشعب واستجابته للكلمة عن طريق الاعتراف بالخطايا، وإقرار الإيمان، والصلوات، والترنيم، والعطايا (Dedden, 26).

وبدأت العبادة المصلحة تتميز بالتالي:

1. قراءة الكلمة وتفسيرها عن طريق الوعظ الواضح والمفهوم.
2. الوعظ النظامي التسلسلي، سفرًا بعد سفر.
3. صلوات المزامير والتسبيح، والاعتراف، والشكر، والتوسل.
4. النظر إلى عشاء الرب كوليمة عهد مع التركيز على الشركة Communion.
5. مراعاة البُعد اللاهوتي والكتابي الصحيح في الترنيم.
6. زيادة مشاركة الشعب في العبادة.
7. تجنب الغموض والسرّيَّة في الممارسات.

الخاتمة

نخطئ كثيرًا عندما نتجاهل كلمة الله وننساق برغبات البشر، ونخطئ كثيرًا عندما نجهل تاريخنا المقدّس الحافل بمعطيات الإصلاح والتغيير، ونخطئ كثيرًا عندما نظنّ أنّ الإصلاح يعني التخلّص من كل ما هو قديم، أو أنّ شعار "الكتاب المقدّس وحده" يعني محاربة التقليد الكنسي بصورة عمياء. نحتاج أن نعيد النّظر بجدية وشجاعة وأمانة لنحفظ مكتسبات الإصلاح العظيم ونستلهم طريق المصلحين الذين كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم ليعيدونا إلى الدرب الصحيح. وتأتي العبادة في قلب اللاهوت المُصلح الذي رفع شعار "المجد لله وحده"، وعلينا أن ندرس بإمعان ليتورجيا الكنيسة عبر التاريخ وكيف أصلحها المصلحون لتكون بمثابة "العبادة العقلية"، التي يدعونا إليها الكتاب كجماعة العهد الجديد.

المراجع

1. Deddens, .Where Everything Point to Him. Trams latel by Theodore planting Neerlandia, Canada: In heritance publications, 1993
2. Kromminga, D.H. A History of the Christian Church, WM, B. EE Rdmams publishing, Grand Rapids: 1945.
3. Old, Hughes. O. Worship that is Reformed According to Scripture: Atlanta: John Knox Press, 1984.
4. Rayburn G. Robert, O Come Let Us Worship, house, Grand Rapids, Michigan: 1980.
5. Reed, Kevin. Biblical Worship. Dallas, Texas: Presbyterian heritage publications, 1995.
6. Webber, R.E .Worship: Old and New. Grand Rapids: Zondervan Corporation. 1982.